الحملة الإنجليزية إلى مدينة الإسكندرية

(١٦ - ٢١ مارس ١٨٠٧)

جاء الإنجليز إلى مصر فى عام ١٨٠١ حلفاء للباب العالى ، ونجحوا فيما جاءوا من أجله : هزموا الفرنسيين فيما يسمونه معركة الإسكندرية (مارس ١٨٠١) ، وأرغموهم على الجلاء عن مصر . وفى عام ١٨٠٧ عاد الإنجليز إلى مصر ، خصوما للسلطان هذه المرة وفشلوا فشلا ذريعا، فحملتهم حينئذ كانت - كما يعتقد Douin - خطأ فى الفكرة والإعداد والتنفيذ[١].

ومهما كانت أوجه الاختلاف بين الحملتين ، فمن المؤكد أن الإنجليز فى كلتيهما لم يجيئوا إلى مصر لغزو البلاد أو لاحتلال دائم لها [٢]. والحملتان أيضا قد جاءتا تمشيا مع سياسة بريطانيا العظمى، وإهدارا لخطط فرنسا إزاء مصر والباب العالى . فباتفاقية عام ١٧٩٩ تحالفت بريطانيا مع السلطان العثمانى ضد مشروعات فرنسا فى الشرق ، ضامنة له ممتلكاته بلا استثناء كما كانت قبل مجىء حملة بونابرت إلى مصر، ومتعهدة بإعادة مصر إلى حوزته .... وكان الإنجليز مخلصين فى تعهدهم إلى أبعد الحدود ، وخرج الفرنسيون من مصر ... أما حملة عام ١٨٠٧ فقد جاءت لتأمين مركز بريطانيا الحربى فى جنوب أوروبا إذا ما اضطرت إلى خوض غمار حرب فى إيطاليا ، وإضعاف مركز السلطان بعد تقاربه من الفرنسيين وقيام الحرب التركية الروسية (١٨٠٦- ١٨١٢) .

بمعنى آخر، حدث ما جعل العلاقات تتدهور بين بريطانيا العظمى والدولة العثمانية، وتطور الأمر من جفاء إلى عداء ... ففى ٢١ نوفمبر ١٨٠٦، يرسل The Right Hon. W. Windham رسالة سرية إلى الجنرال Fox قائد القوة الإنجليزية المرابطة فى صقلية ، يقول له فيها إن تصرفات الباب العالى أخيرا قد جعلت الحاجة ماسة إلى اتخاذ إجراءات ضرورية وسريعة وحاسمة إزاء الحكومة التركية ... وعلى ذلك فقد صدرت الأوامر لإرسال أسطول كاف من السفن ليتجه دون إبطاء إلى القسطنطينية حيث يتخذ وضعا عدائيا يمكنه وقت اللزوم من توجيه ضربة إليها[٣] .

ثم يشاهد شتاء عام ١٨٠٧ تصاعدا فى توتر العلاقات بين تركيا من جانب وكل من روسيا وبريطانيا من جانب آخر ...(٤) وجاء Vice – Admiral Sir John T. Duckworth – وكان تحت إمرته اثنان من كبار القادة البحريين هما Vice – Admiral Louis & Sidney Smith على رأس أسطول من سبع سفن Vaisseaux ، واثنين Frigates ومجموعة من السفن من نوع Corvettes وBomberdes ، واقتحم الدردنيل بدون خسائر وفى يوم ٢١ فبراير ١٨٠٧ صار الأسطول الإنجليزى أمام القسطنطينية ، ولكنه فشل فيما جاء من أجله . وعاود الإنجليز الكرة فى ٣ مارس ، ولكنهم فشلوا أيضا ، واستمر صمود السلطان (٥) .

وفى الوقت نفسه الذى كانت فيه الحكومة البريطانية تعد لهذا العمل العدائى ضد السلطان فى عقر داره ، كانت تعد أيضا لعملية عسكرية أخرى ضده ، ولكن فى مكان آخر من أملاكه، فى مصر والإسكندرية على وجه التحديد (٦) . وتصدر التعليمات إلى قائد الأسطول فى نفس الوقت ، أنه إذا تطورت الأمور فى القسطنطينية ، وفور بدء العمليات العسكرية هناك ، وبدون انتظار لأوامر ، عليه عمل الترتيبات والاستعدادات لنقل قوة من خمسة آلاف رجل إلى مصر (٧) .

وتتابعت الأوامر والاستعدادات بالتالى لتنفيذ العمليتين فى وقت واحد . فترسل الأوامر إلى Sir Sidney Smith قائد الأسطول الذى يحمى صقلية للانضمام إلى أسطول Duckworth الذى تقرر ، كما قلنا ، أن يعمل ضد القسطنطينية . كذلك يكلف قائد أسطول قبرص بالإعداد لنقل سبعة آلاف جندى ، ويرشح الجنرال Fox ، قائد الجيش فى صقلية ، لقيادة تلك الحملة ، فقد كان أكثر القواد علما بطبيعة المكان الذى سوف ينزل إليه جنود الحملة فى مصر . (٨)

ثم يتلقى فوكس التعليمات أنه فى حالة تطور الأمور وبدء القتال فى القسطنطينية، فعليه أن يرسل قوة من خمسة آلاف رجل إلى مصر، وأن تكون تلك القوة مستعدة للإبحار إلى مصر فى ظرف ساعتين من إخطار Vice – Admiral Sir John Duckworth له ببدء القتال فعلا بعد وصوله إلى مضايق القسطنطينية . (٩) ...

نلاحظ هنا أن بريطانيا - فى نطاق تدابيرها لتوجيه الضربات إلى السلطان العثمانى- قد خططت فى نفس الوقت للاستيلاء على جزيرة Milo باليونان كمحطة بحرية. ولكن الافتقار إلى القوة الضاربة واللازمة حينئذ من ناحية ، وسوء الأحوال هناك من ناحية أخرى، قد جعل سير جون دوكورث يقرر تأجيل تلك العملية. فالقوة العسكرية اللازمة لها، ستكون على حساب أمن جزيرة صقلية أو على حساب القوة المزمع إرسالها إلى الإسكندرية (١٠). يضاف إلى ذلك أن الجزيرة - رغم خلوها من أية قوات عثمانية أو حتى من السكان - كانت غير صحية والمياه فيها غير صالحة (١١) .

ومسألة الإسكندرية بالنسبة لخبراء الحرب البريطانيين حينئذ - كانت أهم من أى موقع آخر شرقى المتوسط. وفوكس فى تعليماته إلى Fraser بشأن حملة الإسكندرية- يلفت انتباهه إلى التركيز على الاستيلاء على مدينة الإسكندرية ، حتى ولو طلب منه الأدميرال سيرجون دوكورث قواتا لاحتلال أى جزيرة بالأرخبيل كمحطة لأسطول جلالة الملك فى هذه المياه . وعلى فريزر - هكذا تقول تعليمات فوكس - فى هذه الحالة أن يقتطع أقل كم من القوات تحت إمرته يراه مناسبا لهذه العملية ، ولكن دون إضعاف لقواته إلى الحد الذى يهدد مركزه فى الإسكندرية . ثم يترك له فوكس الخيار - تبعا لتقديره الخاص -فى رفض أو قبول مثل هذا الطلب . (١٢)

على أى حال ، كانت هناك فى أوائل فبراير ١٨٠٧ قوة من خمسة آلاف رجل على أهبة الرحيل ، ويقودها Major-General Fraser ، وكان رجلا ، كما يقول فوكس مستقيما ذا سلوكاً قويماً ومؤهلا لمثل هذا المركز(١٣)، لذا يعطيه فوكس صلاحيات الاتصال بوزير الحرب البريطانى مباشرة مع تزويده بصورة من تلك المراسلات (١٤) .

وتتوالى الأحداث ، ففى ١٧ فبراير ١٨٠٧ يظهر أسطول بريطانى بقيادة دوكورث أمام القسطنطينية بعد اقتحامه الدردنيل، ولكن سرعان ما يضطر إلى التقهقر بعد فقد سفينتين(٣ مارس) بسبب استعدادات الترك التى أوعز بها Sebastiani بالقسطنطينية(١٥)، وأصبحت الحملة إلى الإسكندرية أمرا لا مناص منه وأرسل سيرجون دوكورث من على ظهر السفينة Royal George، بالقرب من الدردنيل، يوم ٧ مارس، إلى الجنرال فوكس

بصقلية يقول له أن الحكومة التركية قد اتخذت جانب فرنسا، لذا هو يشعر بالرضا لاستعداد القوات للإبحار إلى الإسكندرية (١٦) .

كانت هذه هى الظروف التى فى ظلها وجهت بريطانيا حملتها إلى الإسكندرية فى مارس ١٨٠٧ .

أقلعت الحملة من ميناء مسينا بصقلية فى صباح يوم الجمعة ٦ مارس ١٨٠٧ بقيادة فريزر (١٧) . وكانت تتكون فى جملتها من ٦٦٠٤ رجلا ، منهم فئة لا بأس بها من قوات غير إنجليزية يراها فوكس ذات نوعيات ممتازة ، منتظمة ومدربة جيدا ويمكن الاعتماد عليها(١٨)، وكانت عبارة عن خمس مجموعات من المتطوعين من صقلية عددهم ٦٦٦ (Royal Sicilian Volunteers) وضمت الحملة أيضا ٨٨ من الفرسان، ٤٦ حصانا ، ٢١٧ من رجال المدفعية ، ٦ من المهندسين ، ٣٦٤ إمرأة ، ٣٢٣ طفلا ، وهيئة طبية (١٩) . ويصف فوكس الحالة المعنوية للحملة بأنها كانت على درجة عالية من المرح والإرادة القوية (٢٠).

وأبحرت القافلة فى طريقها إلى الإسكندرية ، وكانت مكونة من سفن الأسطول ومعها ثلاثة وثلاثون سفينة مرافقة وناقلة للحملة. وكان الأسطول تحت قيادة Captain Hallowell وبعد يوم من الإبحار ، انفصلت السفينة (الفرقاطة) Apollo ومعها ١٩ من سفن المواصلات ، بينما استمرت السفن الباقية وعددها ١٤ سفينة ومعها السفينة الحربية Tiger إلى ميناء الإسكندرية (٢١) .

وقبل وصول الأسطول ، جاءت سفينة إنجليزية إلى الميناء دون أن تخبر أسباب حضورها (٢٢)، ثم وصلت السفينة الحربية Wizard (٢٣) إلى ميناء الإسكندرية يوم ١٤ مارس تحمل رسالة من فريزر إلى Major Misset ، تدعوه للانتقال إلى السفينة لحمله إلى الأسطول تحت قيادة هالويل بهدف تزويده بكل التعليمات التى فى حوزته(٢٤) ، ففريزر كان قد تلقى التعليمات من قبل بما ينبغى اتخاذه قبل النزول إلى البر وبعده ... فكان على فريزر لدى وصوله عند مشارف الإسكندرية أن يتصل بالقنصل الجنرال

البريطانى ميسيت ليلحق به ليعلمه بحالة الدفاع عن الإسكندرية ، وموقف القوة التركية هناك وحالة بطاريات الدفاع عنها . ذلك، بالإضافة إلى نصائح القنصل ، كان يراه فوكس مفيدا جدا عند بدء العمليات الأولى (٢٥)، فلبى ميسيت الدعوة ، ومضى لمقابلة من بالسفينة ثم عاد إلى المدينة . فميسيت وجد أنه من مصلحة الحملة أن يظل بالمدينة لإحباط خطط ومؤامرات القنصل الفرنسى ضد الإنجليز (٢٦) . فى نفس الوقت يزود ميسيت الحملة بكل مالديه من معلومات ونصائح، مشيرا إلى ضعف الحامية وموقف السكان الودى إزاء الحملة (٢٧) . ويبدو أن ميست كان واثقا من صحة قراره إلى حد كبير فقومندان (٢٨) الإسكندرية وكبار العلماء بها قد أعطوا له أقوى الضمانات بأنه لن يمكن لأحد المساس به تحت أى ظرف، من ناحية أخرى هو يجد فى بقائه فائدة بالنسبة لعمليات الإنزال إلى الشاطئ ثم الاستيلاء على المدينة(٢٩).

وفى اليوم التالى (١٥ مارس) وصل Hallowell إلى برج العربArab's Tower مع ١٤ سفينة من القافلة ، وكانت قد انفصلت ١٩ سفينة ليلة ٧ مارس – كما قلنا – نظرا لظروف جوية . ولم يشأ فريزر إنزال الجنود حتى يتلقى المعلومات عن قوة الأتراك . وتقدمت السفينة Tiger حيث ألقت مراسيها فى الميناء الغربى . وهناك انتظرت يوم ١٦ مارس وفريزر على ظهرها لاستقبال ميجور ميسيت المقيم البريطانى بالإسكندرية ونائبه Mr. Briggs ومعرفة مقدار القوة ومركز الحامية وسكان المكان . وتلقى فريزر فى مساء نفس اليوم من ميسيت معلومات مطمئنة عن موقف السكان الودى ، والاحتمال الضئيل لمجابهة أى مقاومة لدى نزول الإنجليز إلى البر(٣٠) .

وفى اليوم نفسه نزل من السفينة ضابطان طلبا مقابلة قومندان المدينة (أمين أغا)، وكان من ضباط الآستانة ، وتكلموا فى شأن تسليم المدينة والقلعة ، مع وعد بالحماية للناس وممتلكاتهم. وعلى عكس ما توقع الإنجليز ، فقد رجع الضباط فى صباح اليوم التالى (١٧ مارس) مع تصريح من الحاكم بأنه سوف يدافع عن المكان إلى أقصى حد(٣١). فى نفس الوقت يتوالى وصول السفن إلى ميناء الإسكندرية . أما السفن المفقودة وعددها ١٩ سفينة للمواصلات ، فقد وصلت إلى ميناء « أبو قير» فى صباح

يوم ٢٠ مارس ، وبعد يومين (٢٢ مارس) ، وصل أسطول سير جون دوكورث إلى الإسكندرية [٣٢].

وتحركات الحملة ، منذ وصولها إلى مياه الإسكندرية وحتى استيلائها على المدينة، ترويها مراسلات كل من قائديها : فريزر وهالويل ...

فمنذ بدأ الاتصال بين الحملة وميسيت ، والأخير يكرر النصح بنزول القوات فى الحال إلى الشاطئ ، فثقته كل الثقة فى موقف الأهالى الودى إزاء الإنجليز جعلته يؤكد بأن فريزر سوف يستولى على المدينة دون طلقه رصاص واحدة !! [٣٣]، ذلك بالإضافة إلى تكرار تأكيده لضعف استحكامات المدينة وحاميتها ... ولكن حالة النقص الشديد فى قواته لعدم وصول السفن المفقودة بعد ، جعلت فريزر يتريث فى قراره بالنزول ... وهو - على أية حال ومنذ وصوله ، قد بدأ حربا نفسية نشطة ضد المدينة وحماتها فأرسل مساعده الكابتن A. Court مع بيان مفصل بشروطه ، كما حمله بيانا (منشورا) إلى حاكم المدينة وسكانها [٣٤] .

وهكذا ، ومن على ظهر السفينة Tiger ، يجىء إنذار فريزر كقائد للحملة ، وهالويل كقائد للأسطول المهاجم ، لأهالى الإسكندرية وحاكمها . وفيه يعلن القائدان أنهما قد جاءا للاستيلاء على مدينة الإسكندرية وميناءها وقلعتها والجهات التابعة لها ، وأنهما لم يجيئا لغزو البلاد وإنما لمجرد منع الفرنسيين من العودة والاستيلاء على البلاد ، وللتمكن من حماية الأطراف التى تتبنى علاقات الصداقة فى كل الأوقات مع بريطانيا العظمى [٣٥] .

وفى الإنذار يتبع القائدان تعليمات الوزير - عن طريق الجنرال فوكس - والتى تقول بأن على فريزر عند اتصاله بالأتراك أن يبالغ فى ذكر عدد أفراد الحملة ومعداتها ، وأن يفقدهم الأمل فى المقاومة [٣٦] . وهما كذلك يبينان أن الإنجليز لا ينوون الإضرار بأحد [٣٧] فإنسانية وشرف وحرية الشعب البريطانى أمر معروف لدى أهل هذه البلاد، وأن الثقة كاملة فى أن أهل البلاد أنصار للهدوء والنظام، وأن الإنجليز إذا دخلوا البلاد سلما فسوف يجد كل شخص الحماية وتحرم ملكيته الخاصة . أما إذا كان الأمر عكس ذلك فعلى الأهالى والحامية تحمل النتائج [٣٨] .

ولكن البيان لم يلق النتيجة التى كان يرجوها الإنجليز وينتظرونها . فقد قابل أمين أغا ، حاكم المدينة ، إنذار الإنجليز - كما يقول فريزر - بالاحتقار [٣٩] . وحينئذ ، وجد فريزر أن العدو قد تأكد من نواياه ، فإن كل تأخير من جانب الإنجليز - بالنسبة للنزول والاستيلاء على المدينة - يمنح العدو فرصه لتقويه مركزه . هذا بالإضافة إلى أن تعليمات الجنرال فوكس له من قبل ، كانت تقضى بأن يستولى على الإسكندرية فورا وبدون حصار ، وذلك بحركة جريئة وسريعة[٤٠] . لهذا يصمم الجنرال على النزول فى الحال مع القوة التى كانت معه ...

وهكذا يبدأ النزول مساء يوم ١٧ مارس [٤١] . أما حالة المدينة حتى ذلك الوقت، فيمكن الإلمام بها أساسا مما كتبه ميسيت ، بشىء من الدقة والدراية فى مراسلاته . وقد أشار الجبرتى إلى ذلك الأمر ، ولكن الحقيقة ربما تاهت هنا بين «الشائعات والمراسلات» و«الأخبار الصحيحة». والجبرتى على أية حال - على عكس الأمر بالنسبة لميسيت - لم يكن بالإسكندرية حينئذ ... وهو يقول فى حوادث شهر ذى الحجة ١٢٢١ (فبراير ١٨٠٧)، أنه بمجرد انتشار الأخبار عن قرب وصول حملة إنجليزية إلى مصر ، شرع أهل الإسكندرية فى تحصين قلاعها وأبراجها وكذلك أبوقير. كذلك أخذ عمال محمد على فى تحصين الأماكن بالقرب من الإسكندرية وقلعة البرلس[٤٢].

ومن الطبيعى أيضا أن يكون للقنصل الفرنسى فى الإسكندرية Drovetti دوره فى سير الأحداث حينئذ .. فبوصول أنباء القسطنطينية - فيما يتعلق برحيل السفير البريطانى - إلى مصر ، عمل القنصل الفرنسى فى المدينة جهده لإقناع كل من حاكم المدينة التركى وأهالى الإسكندرية[٤٣] بالسماح للألبان ، جنود محمد على ، بالدخول إلى المدينة لتقوية الحماية بها. فمحمد على كان قد تلقى الأوامر من القسطنطينية ليجعل كل منطقة فى مصر فى حالة دفاع . كذلك أمر محمد على بأن يقاوم بكل ما لدية من قوة أى إنزال لقوات بريطانية فى البلاد . وقد عرف هذا الأمر علانية فى البلاد[٤٤]. كذلك كان القنصل الفرنسى غاية فى النشاط فى اتصاله بحاكم المدينة وتوجيهه إلى كيفية تحسين وسائل الدفاع عن المدينة [٤٥] . ولكن ميسيت يعمل

جهده لإحباط العمل الفرنسى ، ويجتهد فى إقناع الحاكم التركى بأن السماح للألبان بدخول مدينته إنما هو علامة على فقدانه السلطة على المدينة وهو كذلك يوضح للأهالى ما يسببه الألبان من محن أينما حلوا ... ولذلك يبقى ميسيت فى الإسكندرية لا يغادرها - بعكس دروفتى- حتى نزول الإنجليز، وذلك من أجل إحباط خطط الفرنسيين...[٤٦] . بمعنى آخر ، كانت تدور فى مصر حرب إعلامية بين الفرنسيين والإنجليز ، وفيها كان الإنجليز يعانون الكثير، وذلك بسبب صعوبة الحصول على المعلومات ؛ فالأتراك كانوا قد احتجزوا مجموعة من السفن فى رودس، ومنها السفن الحاملة للرسائل من أزمير والقسطنطينية [٤٧] .

ووفقا لأوامر محمد على ، أظهر حاكم المدينة الاهتمام بالإصلاح السريع لأسوار الإسكندرية ، ووضع بضعة مدافع على القلاع بطريقة تدافع بها عن مدخل الميناءين القديم والحديث[٤٨]، وإعداد كمية من الذخيرة غير كافية لكل مدفع[٤٩]. والمدينة - على أية حال ، وقبل شهرين من وصول الإنجليز إليها - كانت فى حالة لا تسمح لها بمقاومة الغزو . فالقلعتان الرئيسيتان Cretin & Cafarelli ، كانتا فى حالة غاية من السوء والتدمير ، والحاكم لا يملك وسائل الإصلاح ، ويجهل فن ترميم هذه القلاع . أما الحامية ، فكانت صغيرة لا تصل إلى ٣٠٠ رجل ، وتجهل تماما الخطوط التى ينبغى عليها حمايتها .

والحاكم ، رغم أنه وضع عدة مدافع إضافية بجانب البطاريات ، إلا أنه لم يكن يملك رجال المدفعية اللازمين لتشغيلها .. وعلى ذلك فميسيت كان يتوقع أن يكون احتلال الإنجليز للمدينة أمر يسير جدا [٥٠] ، وأن فريزر سيستولى على المدينة دون إطلاق رصاصة واحده !!.

أما بالنسبة لأهالى الإسكندرية فكان ميسيت لا يتوقع مؤازرتهم لحاميتها فى حالة هجوم بريطانى على مدينتهم[٥١]. وميسيت لم يكن مطمئنا فقط إلى أهالى الإسكندرية، بل كان يتوقع أيضا مساعدة بعض قبائل العرب للحملة. فالقنصل الإنجليزى كان يعقد الاجتماعات مع زعمائهم بهذا الخصوص، وأصبح يعتقد أنه من المحتمل الاعتماد

عليهم إذا كانت الحاجة ماسة إلى ذلك: (٥٢) . وظل ميسيت على اعتقاده حتى قبيل نزول الحملة وهو يكتب إلى فريزر موضحا أن الشيخ محمد المسيرى - وهو رجل ذو نفوذ لا شك فيه عند أهل المدينة - قد أرسل إليه فى ذلك الصباح (١٥ مارس) ليؤكد له ما سبق أن وعد به من قبل ، وهو أنه فى حالة غزو البريطانيين لمصر، فإن أهل الإسكندرية لن يعترضوا إطلاقا على ذلك ، بل إنهم سوف يقابلون الإنجليز بالأحضان !!(٥٣) .

كان ميسيت إذن غاية فى التفاؤل بالنسبة لنجاح الحملة وإتمام المهمة بدون خسائر ، وهو فى مراسلاته إلى فريزر ، لا يوضح الموقف فى المدينة فحسب ، بل ينصح أيضا بما ينبغى اتخاذه من خطوات لضمان نجاح الحملة . فهو ينصح فريزر بالنزول فى « أبوقير»، ولاسيما وأن قلعة « أبوقير » كانت متهدمة ويحتلها حوالى العشرين فردا . وهكذا كانت الاستحكامات حول الإسكندرية قليلة الأهمية ... وقال إنه يمكن الحصول على الماء فى المنطقة من أبوقير إلى الإسكندرية عن طريق حفر بضعة أقدام. أما إذا حدث واتخذ الأتراك لهم مواقع فى هذا الطريق ، فهو يؤكد أنهم لن يصمدوا لمجموعة من القوات البريطانية وهى تهجم بحراب البنادق . كذلك هو ينصح بإنزال عدد من حوالى الألف وخمسمائة جندى غرب الإسكندرية عند جزيرة Marabout ، ويعطى بيانا عن خط الدفاع بين الموقع والإسكندرية ، وهو خط لا يشتمل إلا على بطارية من مدفعين غربا ، ومدفع واحد إلى الشرق . هذا فضلا عن أن الأتراك - فى تصوره - لا يفهمون فى فن المدفعية (٥٤).

قرر إذن فريزر النزول فى الحال : هناك أولا وجهات نظر ميسيت ونصائحه، من ناحية أخرى كان الغزو هو الوسيلة الوحيدة لمنع وصول الألبان إلى المدينة (٥٥)، ومنع المدافعين من تقوية استحكاماتهم . هناك كذلك تعليمات الجنرال فوكس، وأخيرا كان فريزر قد كشف عن نواياه وهدفه من القدوم إلى مصر ، فكان لابد إذن من الإسراع فى النزول ...

بدأ الجنود فى النزول إلى الشاطئ بقدر ما وسع ذلك العدد الضئيل من قوارب النقل المتاحة حينئذ ، فى بقعه تقع على بعد بضعة أميال من شرق Marabout [٥٦]، دون مقاومة . وكان لدى فريزر حينئذ ، ما بين ستمائة إلى سبعمائة جندى، من بينهم خمسة مدافع ميدان وستة وخمسون من البحارة تحت قيادة الملازم Boxer. فأخذوا يفدوا إلى الشاطئ بدون مقاومة ، واتخذوا لهم موقعا لقضاء الليل ، ثم حالت أمواج البحر دون نزول الباقين الذين أكملوا النزول بعد ظهر اليوم التالى (١٨ مارس) [٥٧] .

وارتفاع الأمواج وحالة الجو عموما ، كانا يحولان دون إحضار المؤن إلى الشاطئ أو الاتصال بالسفن الراسية .. ولكن بمجرد اكتمال العدد قرر فريزر أن يشق طريقه لمهاجمة دفاعات العدو بهذه القوة الصغيرة التى كانت لديه حينئذ ، متوجها إلى القلاع التى كانت تسيطر على المدينة . فى نفس الوقت رأى فريزر أن يتوجه جيشه إلى الشرق من المدينة حتى يستطيع أن يتلقى المؤن من«أبو قير»[٥٨].

بذلك يتحرك الجيش وعلى رأسه فريزر حوالى الساعة الثامنة من مساء يوم ١٨ مارس. وكان هناك خندق عميق يمتد من قلعة الحمامات Fort de Bains إلى بحيرة مريوط ، ويحمى هذا الخط ثلاث بطاريات تحمل مدافع خفيفة ، بخلاف قلعة الحمامات إلى الشرق منه وقد ركب عليها ١٣ مدفعا . وقد وقعت هذه النقاط فى أيدى الإنجليز بسهولة ، وبخسائر طفيفة جدا رغم أنهم تعرضوا لنيران ثقيلة من المدافع والبنادق [٥٩] . وتقدم فريزر بقواته ، التى لم تكن تتعدى الألف رجل ، حتى صار على بعد ياردات من باب بومبى ، وعسكر تحت أسوار المدينة حيث كانت الحامية مستعدة لاستقباله بالمقاومة وكان الباب محصنا والحوائط تعلوها القوات المتراصة والأهالى المسلحون[٦٠] ... وشعر فريزر بضعف مركزه وأن المخاطرة بالهجوم ستكون عظيمة ، لهذا قرر التقدم شرقا ..

وفى صباح يوم ١٩ مارس اتخذ فريزر مواقعه إزاء أرض استولت عليها قواته فيما بعد (يوم ٢١ مارس) ، وأرسل جنودا للاستيلاء على قلعة أبو قير ، وعلى «القطع» أو الممر بين المعدية ومريوط . وكان ذلك هو طريق مواصلات النجدة الألبانية والتى كان

من المتوقع وصولها إلى الإسكندرية . ونجح فريزر فى تحقيق هدفين : الاستيلاء على الموقع ومنع مرور القوات الألبانية[٦١] . فى نفس اليوم (١٩ مارس) وصلت السفينة Apollo ومعها بقيه الأسطول أمام الإسكندرية ، ثم تقدمت أبوللو ومعها كل سفن المواصلات إلى خليج أبوقير حيث بدأوا إنزال قواتهم [٦٢]

وفى اليوم التالى (٢٠ مارس) عاد فريزر ووجه بيانا إلى الأهالى حمله إليهم أحد العرب من أصدقاء الإنجليز كان قد غادر المدينة وانضم إليهم ، وفيه يحذر فريزر الأهالى من الخلط بين الأصدقاء والأعداء فى حالة الاستيلاء على المدينة بالقوة ، ويحثهم على إرغام الحاكم على الاستسلام [٦٣] .

ويبدو أن مظاهر القوة والعظمة ، التى كان فريزر يبالغ فى إظهارها ويحاول إقناع الأتراك وأهل الإسكندرية بها ، وإنذاره لأهل المدينة بالويل والثبور فى حالة دخول المدينة عنوة ، كان له أثره فى دفع الحاكم والأهالى إلى التسليم. يقول هالويل فى رسالة إلى دوكورث، أن احتلال قلعة «أبو قير» ووصول بقية سفن الأسطول وظهور التعزيزات الحربية الجديدة، قد أقنعت الحاكم بعرض شروط التسليم [٦٤] . يضاف إلى ذلك، أنه حالما حدث الهجوم البريطانى على خط الدفاع القائم من الميناء القديم إلى بحيرة مريوط كما بينا، واتخاذ الإنجليز لمواقعهم شرق الإسكندرية، انتاب الجميع الرعب، فغادر الأتراك مواقعهم، وهرب معظمهم، وأسرع سكان المدينة بعرض الاستسلام [٦٥] .

وهكذا يوقع صك الاستسلام يوم ٢٠ مارس ١٨٠٧ (العاشر من محرم ١٢٢٢هـ) ووقعه السيد محمد نعيم أفندى نيابة عن أمين بك حاكم المدينة ، والحاج محمد كاتف وإبراهيم باصا عن الجانب السكندرى ، وميجور جنرال فريزر قائد قوات الغزو ، وكابتن هالويل قائد السفينة الحربية Tiger... وتنص المادة الأولى منه على حماية الممتلكات الخاصة بالأهالى فى البر والبحر ، واحترام العقيدة والمساجد [٦٦] .

والجبرتى يورد فيما جاء بصك الأمان هذا فيقول أن الإنجليز «شرطوا على أهالى البلد شروطا منها أنهم لا يسكنون البيوت قهرا عن أصحابها ، بل بالمؤاجرة والتراضى،

ولا يمتهنون المساجد ولا يبطلون منها الشعائر الإسلامية ، وأعطوا أمين أغا الحاكم أمانا على نفسه وعلى من معه من العسكر وأذنوا لهم بالذهاب إلى أى محل أرادوه ومن كان له دين على الديوان يأخذ نصفه والنصف الآخر مؤجلا . ومن أراد السفر فى البحر من التجار وغيرهم فليسافر فى خفارتهم إلى أى جهة أراد ما عدا إسلامبول . وأما الغرب والشام وتونس وطرابلس ونحوها فمطلق السراح لا حرج ذهاب وإياب ... ومن شروطهم أيضا أنهم لو احتاجوا إلى مال، لا يكلفون أهل الإسكندرية بشىء من ذلك، وأن محكمة الإسلام تكون مفتوحة تحكم بشرائعها ...والحمايات من أى بندیرة تكون مقبولة عند الإنكليز الموجودين بالإسكندرية ، ويقيمون مأمونين رعاية لخواطر أهل الإسكندرية ... حتى الفرنساوية .. والكمارك من كل الجهات على مائة اثنان ونصف .. انتهت الشروط» (٦٧) .

وصارت الاتفاقية سارية المفعول من بعد ظهر نفس اليوم (٢٠ مارس) ، وأخذ الإنجليز مواقعهم على قلاع Caffarelli و Cretin فى الساعة الثانية من صباح اليوم التالى (٢١ مارس) (٦٨) .

وسقوط الإسكندرية فى أيدى الإنجليز بشئ من السهولة قد جعل البعض يشير بأصابع الاتهام تارة إلى أهلها ، وأخرى إلى حاكمها أمين أغا - واتهام الأخير بأنه تقاضى من الإنجليز رشوة ليسلم لهم المدينة لقمة سائغة : فالرافعى يقول إن الإنجليز دخلوا الإسكندرية ليلة ٢١ مارس دون أن تطلق رصاصة واحدة ، وأنهم استولوا على المدينة دون قتال(٦٩) ، بينما ما يذكره الجبرتى عن ظروف التسليم وكيفيته ، يختلف عن ذلك كل الاختلاف ... يقول الجبرتى فى أحداث عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) ، أنه فى يوم ٩ محرم (٢٠ مارس ١٨٠٧) ، «وردت مكاتبات مع السعاة(٧٠) من ثغر الإسكندرية وذلك فى يوم الخميس العصر ، وفيها الأخبار بورود مراكب الإنجليز وعدتهم اثنان وأربعون مركبا فيهم عشرون قطعه كبارا والباقى صغار فطلبوا الحاكم والقنصل ... وطلبوا الطلوع للثغر فقالوا لهم لا نمكنكم من الطلوع إلا بمرسوم سلطانى ... «فقال الإنجليز» وإنما مجيئنا لمحافظة الثغر من الفرنسيس ... وقد أحضرنا صحبتنا خمسة آلاف من

العسكر نقيمهم بالأبراج لحفظ البلدة والقلعة والثغر ... «فقالوا» لم يكن معنا إذن وقد أتتنا مراسيم بمنع كل من يصل عن الطلوع من أى جنس .«فقالوا» لا بد من ذلك فإما أن تسمحوا لنا فى الطلوع بالرضا والتسليم وإما بالقهر والحرب والمهلة فى رد الجواب بأحد الأمرين أربع وعشرون ساعة «فكتبوا بذلك إلى القاهرة وأرسل المسئولون هناك إلى محمد على بالصعيد يطلبونه للحضور» ولما انتهت المدة التى جعلها الإنجليز أجلا بينهم وبين أهل الإسكندرية وهم فى المخالفة ضربوا عليهم بالقنابل والمدافع الهائلة من البحر ، فهدموا جانبا من البرج الكبير وكذلك الأبراج الصغار والسور وعندئذ طلبوا الأمان فرفعوا عنهم الضرب ودخلوا البلدة وذلك يوم الجمعة» (٧١).

وفريزر يعطينا بيانا بعدد القتلى والجرحى من الإنجليز فى هجوم يوم ١٨ مارس بقيادته كالآتى : (٧٢) .

القتلى : سبعة منهم ضابط هو الطبيب Assistant Surgeon Catanazo

الجرحى : عشرة منهم ضابط هو الملازم Cameron

أما حامية المدينة فكانت قبل استسلامها كالآتى :

٢١٥ جندى .

٤٤ طوبجى .

٢٠٨ بحارة وجنود بحرية .

ومجموعهم ٤٦٧ وهؤلاء فر منهم مائتان وأربعون وأسر استسلاما مائتان وسبعة وعشرون ..

وفى الميناء استولى الإنجليز على ثلاث سفن حربية تركية ، فرقاطتين ، وثالثة Corvette ومركب عليها جميعها مدافع نحاسية ؛ وتحمل سفينة منها ٢٨ مدفعا (١٨ رطلا) على السطح الرئيسى ، ٦ مدافع Carronades (٧٣) (١٨ رطلا) ، وكذلك ٤ مدافع طويلة

(9 Pounders) على سطحها ، ومدفعين (9 Pounders) عند مقدمتها ... والسفينة الثانية تحمل ستة وعشرين مدفعا (١٢ رطلا) على السطح الرئيسى وثمانية مدافع (٦ رطل) على السطح . أما الثالثة ، فهى من نوع Corvette وتحمل ١٤ مدفعا (٦ رطل) ، ومدفعين اثنين (١٨ رطلا) ، وهى مدافع طويلة ..[٧٤]

كذلك استولى الإنجليز على مخازن الذخيرة والسلاح لدى حامية الإسكندرية ، وكانت تغص بالمدافع والذخيرة . ويبدو ، كما قال Misset [٧٥] أن المدافعين كانوا يفتقرون إلى الرجال المدربين على استخدم المدافع . وبيانها كما أورده فريزر كالآتى :

أولا : المدافع وعددها :-

٥٢ من البرونز لقذائف وزنها من ٣ إلى ٤٢ رطلا .

٢٩ مورتار (برونز) قطر كل منها من ٨ إلى ١٥ بوصة .

٢ Howitzers أحدها ١٠ بوصات ، والآخر ٨ .

١٧٢ مدفعا من الحديد وسعتها تختلف من ٤ إلى ٣٢ رطلا .

١٢ من عربات المدافع منها اثنتان غير صالحتين للعمل.

ثانيا : الذخيرة :-

كانت تتكون من قذائف من مختلف الأوزان يربو عددها على الأربعين ألف قذيفة [٧٦] .

وفى الإسكندرية لقى الإنجليز كل ود وتعاون ، ورحب الشيخ المسيرى - وكان يعتبر من الأولياء بالمدينة - بقدوم الإنجليز وأظهر الود إزاءهم، واقتنع الإنجليز بأن الأهالى قد أرغموا على حمل السلاح ضدهم يوم ١٨ مارس !! [٧٧] .

وموقف أهل الإسكندرية من الإنجليز إذا ما قورن بموقف أهل البحيرة ورشيد، قد يبدو للبعض بأنه كفيل بإدانتهم. ومع ذلك، فأهل الإسكندرية - منذ البداية - كان موقفهم مشرفا إزاء مدينتهم ، ولا أقول وطنهم[٧٨] ، وإزاء أنفسهم . وفريزر عند تقدمه إلى

أسوار المدينة ، وجد الأهالى مسلحين ، بجوار الحامية ، متراصين على الأسوار فى انتظار استقباله بالمقاومة. ويخشى فريزر أخطار الاقتحام ويتجه شرقا[٧٩]. كذلك تحصن الأهالى وراء أبوابهم حينئذ ، ولم يفتحوها أو يرغموا الحاكم على التسليم كما كان يتوقع الإنجليز . ويفسر ميسيت ذلك تفسيرا غير مقنع حينما يقول - عن تقاعسهم عن مساعدة الإنجليز قبل الاستسلام - بأن ذلك يرجع إلى فقدان الأهالى لنشاطهم بعد ذلك الظلم طويل المدى الذى قضى على روح الهمة فيهم[٨٠] ... كذلك لا ينبغى أن ننسى أن الأهالى لم يطلبوا الاستسلام إلا بعد أن أذاع فريزر منشوره الثانى ، ينذر فيه الأهالى بالاستيلاء على مدينتهم بالقوة ، ويحثهم فيه على إرغام الحاكم على الاستسلام، وذلك بعد اتخاذ الإنجليز لمواقعهم شرق المدينة، واستعدادهم لدخولها قسرا ، وكان الجند الأتراك قد هربوا أمام قوات فريزر، فعرض الأهالى الاستسلام[٨١] .

وأهل الإسكندرية، كما رأينا، قد اشتركوا بممثلين منهم فى توقيع صك الاستسلام ، فكان عليهم أن يلتزموا بما تعهدوا به، ولاسيما، وهم الجانب المغلوب ، كانوا يتعاملون مع الغالب. ولم ينس لهم الإنجليز موقفهم ، فكان أهل الإسكندرية من موضوعات اتفاق الإنجليز - بعدئذ - مع محمد على للجلاء عن البلاد[٨٢] ...

هناك أمر آخر يتعلق بأمين أغا ، قومندان مدينة الإسكندرية كما تلقبه الوثائق الإنجليزية، أو محافظ المدينة كما يود البعض أن يلقبه ، أو حاكم المدينة كما يشير إليه الجبرتى ... فهل كان الرجل مرتشيا حقا كما يتحدث عنه الرافعى ؟ ... نلاحظ هنا أن أمين أغا كان من ضباط الأستانة ، يعينه الباب العالى حاكما للإسكندرية ، لأن الحكومة العثمانية كانت تعد الإسكندرية حتى حينئذ تابعة لها مباشرة[٨٣] والرافعى يقول[٨٤] إن أمين أغا كان متواطئا مع الإنجليز على أن يسلم لهم المدينة مقابل رشوة تسلمها من ميسيت ، فلما قابله الضابطان القادمان من السفينة الإنجليزية (١٤ مارس) اتفق معهما على أن يسلم المدينة دون مقاومة، ثم انقضى يومان بعد نزول الإنجليز فى العجمى (مساء يوم ١٧ مارس) ، فى مفاوضات صورية بين الإنجليز وأمين أغا الذى سلم نفسه كأسير حرب ومعه حامية المدينة [٨٥] .

وفيما يتعلق بأمر «الرشوة»، فلم يرد بالوثائق البريطانية المتاحة ما يؤكد ذلك أو حتى ما يشير إليه ... ولكن ورد بها على أية حال ما قد يجعله البعض عرضة للتأويل ... هناك مثلا تعليمات الجنرال فوكس إلى فريزر استعدادا للحملة والخاصة بتخويله سلطة «إنفاق مبالغ للخدمات السرية فى مثل هذه الأحوال ، وحرية ما يراه واجب الإنفاق فى الحالات العاجلة مع مراعاة واجب الاقتصاد وعدم الإضرار بالمال العام »[٨٦] . هناك أيضا ما كتبه ميسيت إلى فريزر (١٥ مارس) ، أنه حالما يظهر الأسطول البريطانى فى الأفق، سيحاول إقناع الحاكم بالاستسلام [٨٧] .

والواقع أن أمين أغا كضابط عثمانى ، إنما كان مصمما على الدفاع عن مدينته ضد أى عدو للسلطان أو طامع فى أملاكه .. ولكن الظروف ونقص الإمكانيات، كانت أقوى منه. فمن أول الأمر ، وحينما وصلته أنباء الحرب التركية الروسية ، وأوامر السلطان باتخاذ إجراءات الدفاع عن المدينة، وهو يعتبر أنه لا يقاوم أيضا أى هجوم من قوات محمد على الذى يهدف إلى الاستحواذ على المدينة التى لا تدخل فى نطاق سلطته[٨٨]. وهو حينما التقى بالضباط الذين أرسلهم هالويل إليه إبان رسو السفينة Tiger فى الميناء الغربى بالإسكندرية (١٦ مارس) لإنذاره بالتسليم ، رفض وقال أنه سوف يدافع عن المكان لأقصى حد [٨٩] . ويقول فريزر فى رسالته إلى وندهام ، أن أمين أغا قابل طلب الإنجليز تسليم المدينة بالاحتقار [٩٠] . أخيرا لا ننسى أن أمين أغا ظل على رفضه التسليم ثمانية وأربعين ساعة . غير أن ميسيت يفسر ذلك بأن أمين أغا فضل ذلك ليحمى نفسه من غضب حكومته !! [٩١].

من ذلك يبدو أن الدلائل تشير إلى سلامة موقف أمين أغا ، ولكن نقص إمكانياته وعدم توفير رجال المدفعية لديه ، وضآلة الحامية وضعف الخبرة ، وكل ما كان يظهر أن الشرق مازال متمسكا بسماته : الضعف والتخلف ، هذا بجوار القوة البريطانية ، وحسن التدريب والخبرة، وكل ما كان يعكس قوة الغرب وتقدمه، والذى أظهره هجوم يوم ١٨ مارس، وفرار الحامية التركية وتفرقها، كل ذلك كان ينذر بأفدح الخسائر للمدينة وأهلها إذا صمم أمين أغا على مقاومة غير مجدية. فوافق الحاكم ووافق الأهالى على التسليم.

ولكن هذا النصر السريع والحاسم، سرعان ما أرغمت الأحداث أصحابه على التخلى عنه والإسراع بالانسحاب ... فهناك أولا هذه الهزائم التى منوا بها بعدئذ، بالإضافة إلى زوال العوامل التى من أجلها جاءت الحملة إلى الإسكندرية. من ناحية أخرى، تحقق للإنجليز أن حملتهم هذه إلى الإسكندرية ، كانت حقا خطأ فى الفكرة والإعداد والتنفيذ (٩٢) .

والإنجليز بعد أن استتب لهم الأمر فى الإسكندرية وما حولها ، وجدوا أنه لابد لهم من السيطرة على مواقع إلى الشرق والشمال، ولاسيما الرحمانية ورشيد... فالإسكندرية حينما سلمت كانت كمية القمح بها لا تكاد تكفى أهل المدينة سوى لمدة أسبوعين، والرياح فى خليج أبوقير قد أعاقت المواصلات . فكان من العسير استقبال أى إمدادات من الأسطول . لهذا اضطر الجيش إلى استخدام جانب من القمح المخصص أساسا لسكان المدينة. كذلك كان من الصعوبة بمكان تدبير أمر اللحوم اللازمة للجيش لمدة يوم واحد فقط. ونتيجة لذلك، كان أهل المدينة عرضة لحرمانهم من أية مواد تموينية، ولن يكون للجيش حينئذ من حل سوى استخدام المؤن المملحة Salt Provisions ، وهو نوع من الطعام يفتقر إلى سلامة الاستخدام فى الجو الحار ...

لذلك ينصح ميسيت بضرورة الاستيلاء على مدينة رشيد فورا ، وكذلك السيطرة على موقع الرحمانية جنوبها. فمن رشيد كان القمح والأرز يصدران إلى الخارج ، والاستيلاء على الرحمانية يمكن من السيطرة على إقليم البحيرة الذى كان يمد الإسكندرية بالحبوب والغنم والجاموس والعجول . هذا فضلا عن أن فصائل الألبان كانت حينئذ تتعاقب على مصر باستمرار ، وهم عادة يصلون إلى البلاد عن طريق دمياط. لذلك ينصح ميسيت فريزر باحتلال دمياط أيضا ، أو مرابطة سفينة حربية هناك لمنع استقبال قوات جدد من الألبان ..(٩٣). وكان ذلك يعنى استيلاء الإنجليز على ثغور مصر على البحر المتوسط، وبالتالى خنق النظام الجديد بها(٩٤).

ويتبع فريزر نصيحة ميسيت ، ويرسل فى الوقت نفسه إلى وندهام (٢٧ مارس) يشكو نقص قواته فى مصر ويطلب تعزيزها(٩٥) .وتحدث كارثة رشيد (٣١مارس) ، وفيها بلغ

عدد القتلى من الإنجليز ١٨٥ منهم ضابط برتبة ميجور جنرال هو Wauchope، واثنان برتبة كابتن هما John Robertson ، B.de Senocovrt ، وثالث برتبة ملازم هو D'Almiel أما الجرحى فكانوا ٢٥١ جريحا منهم ١٨ ضابطا من بينهم ضابط برتبة بريجادير جنرال[٩٦] هو Brigadier- General Hon. Robert Meade .

وتتوالى الكوارث بالنسبة لفريزر وحملته ...

وفى الحماد (٢١ أبريل) تحدث الكارثة التالية ...

فالإنجليز حينما جاءوا إلى الإسكندرية ، كان محمد على يقاتل المماليك فى الصعيد ، ففاوض المماليك ، وأبرم معهم الصلح ، تاركا لهم الصعيد ، وأسرع بقواته إلى سفن النقل بالنيل ، فى الطريق إلى القاهرة [٩٧] ، بينما احتل المماليك عواصم الوجه القبلى وتقدموا إلى الجيزة . ووصل محمد على إلى القاهرة ليلة ١٢ أبريل واستعد لملاقاة الإنجليز .

وهكذا تحدث معركة «الحماد» ، وكانت هزيمة مرة للإنجليز ، بلغت خسائرهم فيها كما ترويها وثائقهم خمسة من القتلى وتسعة وتسعون من الجرحى ، وثمانمائة ثمانية وثلاثون من المفقودين ، بينهم ضابط برتبة Lieutenant Colonel ، واثنان برتبة Major وعشرة برتبة كابتن ، وخمسة عشر برتبة ملازم ، وثلاثون طبيبا.

وفى أوروبا ، لم تكن الأمور - بالنسبة للإنجليز - بأقل سوءا .. فنابليون كان فى أوج مجده وقد سيطر على معظم القارة ، وبصلح Tilsit[٩٨] ، أضاف نابليون إلى انتصاراته نصرا سياسيا باهرا قلب موازين الأمور بالنسبة للسياسة البريطانية ، وأحس الإنجليز بأنه - بعد هزائمهم فى مصر ومن منطلق متطلبات سياستهم فى أوروبا - من الضرورى الإسراع بالانسحاب من مصر ... ويكتب Castlereagh ، وزير الحرب البريطانى فى وزارة الدوق De Portland إلى الجنرال فوكس (١٤ يونية ١٨٠٧) ، يشرح له الحالة فى البحر المتوسط ، ويقول أنه من الواضح أنه لا بديل عن الاختيار بين أمرين، إما الجلاء عن مصر، أو ترك صقلية [٩٩] ،فالحملة كانت قد جاءت إلى

الإسكندرية من أجل أمن صقلية ... ولخدمة أمر أكثر أهمية وهو القتال ضد العدو فى إيطاليا بكفاءة ... وكان ذلك يعنى أن الاستمرار فى احتلال الإسكندرية لم يعد مجديا بالنسبة للمصالح البريطانية ، بل بالعكس ، صار ضارا بها .

وفى أواخر أغسطس كان المسئولون الإنجليز مقتنعين تماما بفكرة الجلاء فورا عن البلاد ، وعودة القوات إلى صقلية بأسرع وقت [١٠٠] . بمعنى آخر وجدت بريطانيا أن تضع حدا لهذه المغامرة الجانبية التى لم تف باحتياجات سياستها فقط ،بل صارت عبئا فى مجال الدفاع عن كيانها المهدد فى أوروبا .

وفى دمنهور ، يلتقى محمد على بالجنرال شربروك Scherbrook (١٤ سبتمبر)، الذى فوض فى أمر الاتفاق على الصلح . وهناك يبرم الطرفان المعاهدة التى يوقعها من الجانب الإنجليزى كل من شربروك والكابتن Fellowes، والكابتن هالويل قائد أسطول الحملة ..

وتنص المعاهدة على وقف القتال وجلاء القوات البريطانية فى مدى عشرة أيام ، وتسلم المنشآت العسكرية فى البلاد بحالتها كما هى ، وإطلاق سراح أسرى الحرب الإنجليز . هذا من الجانب العسكرى . أما من الجانب الإنسانى فقد نصت المعاهدة على إطلاق سراح الأسرى الأرقاء الذين كانوا فى خدمة الإنجليز وإبحارهم على سفينة إنجليزية ، وصدور عفو عام عن سكان مدينة الإسكندرية ، لتأمينهم على أرواحهم وممتلكاتهم [١٠١] .

وبذا انتقلت المدينة للمرة الأولى إلى حوزة محمد على ، وأخلى الإنجليز المدينة تماما يوم ١٩ سبتمبر ، وأبحر الأسرى بعدئذ (٢٢ سبتمبر) . ثم أقلع أسطول النقل من أبوقير إلى مسينا (٢٥ سبتمبر) .

خاتمـــة

الحملة الإنجليزية إلى مصر (مارس ١٨٠٧) ، لم تأت كما يعتقد البعض ، طمعا فى الاستعمار والاستقرار ، بل لمهمة تتعلق بالموقف السياسى للدولة العثمانية ، والصراع الفرنسى - الإنجليزى حينئذ ، والموقف فى أوروبا بوجه عام . والجبرتى فى روايته لأحداث عام ١٢٢٢هـ (١٨٠٧م)، يؤكد أن الإنجليز لم يأتوا إلى مصر طمعا فيها، وهو بلا شك موفق فى تلمسه لهذه الحقيقة ولكنه يتجاوزها ببراءة حينما يقول بأن مجىء الإنجليز كان مساعدة للألفى على خصومه باستدعائه لهم واستنجاده بهم ... وما جاء بالوثائق البريطانية ، وحتى فيما يتعلق بمراسلاتهم مع المماليك ينفى مسألة طمع بريطانيا فى استقرار دائم بمصر ... أما مسألة رشيد والبحيرة فكانت بقصد تأمين الموارد الغذائية للإسكندرية ، ومنع الألبان من الوصول إليها .

ولقد بذل كل من أهل الإسكندرية وحاكمها التركى ، الجهد قدر المستطاع للدفاع عن مدينتهم، ولكنهم أرغموا على التسليم .

والإنجليز بعد استيلائهم على المدينة بخسائر طفيفة ، نجحوا فى ضمان تعاون أهل المدينة من ناحية ، «وتخدير» المماليك من ناحية أخرى .. حتى أن هؤلاء ظنوا أن «محمد على» ربما يهرب إلى خارج مصر ، وأخذوا يعدون العدة لأسره بالتعاون مع الإنجليز ... ولكن «محمد على» كان أذكى من الجميع ، وأصاب الإنجليز بالكارثة التى جعلت القول بأن الحملة كانت منذ الإعداد وحتى النهاية خطأ فادحا ، حقيقة واقعة ، أشعرت الإنجليز بالمرارة ، وربما جعلت الكتاب الإنجليز لتاريخ الإمبراطورية يتجاهلون ذكرها ، رغم أنهم - فى نفس الوقت - يهتمون بذكر الإسكندرية حينئذ فى موقعين : أولهما موقعة كانوب (مارس ١٨٠١) التى كان يقود الإنجليز فيها الجنرال هتشنسون Hutchinson ، والتى يسمونها موقعة «الإسكندرية» وفيها انتصر الإنجليز على الفرنسيين وأرغموهم بعدها على الانسحاب من البلاد . وثانيهما ضرب الإسكندرية فى عام ١٨٨٢ قبيل احتلال الإنجليز الدائم لمصر بعدئذ (١٨٨٢ - ١٩٥٦) .

الهوامش

(١) انظر

G.Douin, et E. Fawtier-Jones, L'Angleterre et L'Egypte-La Campagne de 1807, (Le Caire 1928), p. LXV

(٢) يختلف هذا الرأى مع المؤرخ الكبير عبدالرحمن الرافعى . انظر : عصر محمد على ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٧ ، صفحات ٣٧ - ٤١ .

(٣) وندهام إلى فوكس ٢١ نوفمبر ١٨٠٦ (W.O.6-56)

(٤) كانت القوات الروسية قد عبرت الحدود مع تركيا ، وبثت الرعب فى قلب السلطان سليم . ولكن بإيعاز من المبعوث الفرنسى الجنرال Sebastiani طرد الوزير الروسى M.D'Italinski فطالب الروس، يؤازرهم الإنجليز ، بعودة المبعوث الروسى، وطرد سباستيانى ، وإعلان الحرب فورا ضد فرنسا. وقابل السلطان تلك الطلبات بالرفض، وغادر الوزير الإنجليزى Sir Charles Arbuthnot القسطنطينية على ظهر السفينة البريطانية Endymion ومعه موظفو السفارة والتجار الإنجليز، وذلك فى يوم ٢٩ يناير ١٨٠٧ .

انظر :-

M.A. Thiers, Histoire du Consulat et de L'Empire, T.7éme, pp. 433-442.

وكذلك دوكورث إلى فوكس ، ٩ فبراير ١٨٠٧ (F.O. 1- 303)

(٥) بقدوم دوكورث إلى مياه القسطنطينية عم الرعب المدينة وبدت الحكومة التركية على وشك التسليم . ولكن سباستيانى نصح السلطان بالصمود والتظاهر بالتفاوض حتى يتسنى تسليح القسطنطينية ونجحت الخطة ، وتم تسليح المدينة بمعونه بعض الضباط الفرنسيين. ثم انقطعت المفاوضات فجأة لتصميم السلطان على الصمود إزاء المطالب الإنجليزية. وعاد دوكورث للدردنيل، وإبان ذلك أصيب بخسائر فى أسطوله وفى ٣ مارس عاود الإنجليز اقتحامهم للدردنيل ، ولكن الأتراك بمساعدة الفرنسيين أمكنهم إصلاح ما تلف، وأطلقوا على الإنجليز قذائف رخامية قطر القذيفة قدمان ... وعند خروج الأسطول الإنجليزى من المضيق كان معظم سفنه فى حاجة إلى إصلاح سريع ، كما كلف هذا الاقتحام الثانى الإنجليز خسائر أكثر من مائتين ما بين قتيل وجريح ..

انظر :-

M.A. Thiers, Op. Cit., P. 452.

(٦) وندهام إلى فوكس ٢١ نوفمبر ١٨٠٦ (W . O . 6 -56)

(٧) Ibid.

(٨) Lord Collingwood إلى William Marsden ١٥ يناير ١٨٠٧ (Admiralty 1 - 413)

وانظر كذلك

Lord Howick إلى Fox ٢١ نوفمبر ١٨٠٦ (W.O.-304)

(٩) فوكس إلى دوكورث – ٢ فبراير ١٨٠٧ (W.O.-30)

(١٠) فوكس إلى وندهام – ٦ فبراير ١٨٠٧ (W.O.-304)

(١١) دوكورث إلى فوكس –٩ فبراير ١٨٠٧ (F.O.I-303)

(١٢) فريزر إلى فوكس – ٢ فبراير ١٨٠٧ (W.O.I-303)

(١٣) فوكس إلى وندهام – ٦ فبراير ١٨٠٧ (W.O.I-304)

(١٤) فوكس إلى فريزر – ٢ فبراير ١٨٠٧ (W.O.I-303)

(١٥) Langer, W., An Encyclopedia of World History, 1962. p.642

(١٦) دوكورث إلى فوكس – ٧ مارس ١٨٠٧ (W.O.I-304)

(١٧) فوكس إلى وندهام – ٦ مارس ١٨٠٧ (W.O.I-304)

(١٨) فوكس إلى فريزر –٢٧ فبراير ١٨٠٧ (W.O.I-304)

(كان فوكس قد خول فريزر السلطة لتجنيد رجال من أية جنسية للمهمة المكلف بها ، نظير المنحة المعتادة وقدرها خمسة جنيهات) .

انظر :–فوكس إلى فريزر – ٢٧ فبراير١٨٠٧ (W.O.I-303)

(١٩) فوكس إلى وندهام – ٦ مارس ١٨٠٧ (W.O.I-304)

(٢٠) فوكس إلى وندهام – ٤ فبراير ١٨٠٧ (F.O.I-304)

(٢١) فريزر إلى وندهام – ٢٥مارس ١٨٠٧ (W.O.-308)

(٢٢) عبد الرحمن الرافعى – مرجع سابق ، ص ٣٧ .

(٢٣) كانت سفينة من طراز يسمى Sloop ، وهى سفينة ذات صار واحد وقلع واحد خفيفة وسريعة تستخدم فى الحراسة والمهمات الخاصة .

انظر:–

The Concise Oxford Dictionary, p. 1182.

(٢٤) ميسيت إلى وندهام ، ٢٣ مارس ١٨٠٧ (W.O.I-348)

(٢٥) فوكس إلى فريزر ، ٢ فبراير ١٨٠٧ (W.O.I-303)

(٢٦) ميسيت إلى وندهام ، ٢٣ مارس ١٨٠٧ (W.O.I-348)

(٢٧) ميسيت إلى وندهام ، ٢٣ مارس ١٨٠٧ (W.O.I-348)

(٢٨) أى حاكم الإسكندرية (أمين أغا) كما يشير إليه الجبرتى ، أو «محافظ» المدينة كما يسميه الرافعى .

(٢٩) ميسيت إلى وندهام ، ٢١ فبراير ١٨٠٧ (W.O.I-348)

(٣٠) هالويل إلى دوكورث ، ٢٤ مارس ١٨٠٧ (Ad., 1-413)

(٣١) Ibid.

(٣٢) فريزر إلى وندهام ، ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O.I-348)

نلاحظ أنه يبدو أن فريزر لم يكن على وفاق مع دوكورث ، فهو يقول عنه أنه « Much against my inclinations»

(٣٣) نفس المصدر السابق .

(٣٤) نفس المصدر السابق .

(٣٥) بيان فريزر إلى أهالى الإسكندرية فى ١٦ مارس ١٨٠٧ .

انظر :- Douin, Op. Cit., p. 22

(٣٦) فوكس إلى فريزر ، ٢ فبراير ١٨٠٧ (W.O.I-303)

(٣٧) كانت تعليمات وزير الحرب إلى فريزر أن يحمى سكان الإسكندرية وأملاكهم وذلك لدى نزوله إلى الإسكندرية ، نفس المصدر السابق .

(٣٨) بيان فريزر إلى أهالى الإسكندرية فى ١٦ مارس ١٨٠٧ .

انظر :- Douin, Op. Cit., p.22

(٣٩) فريزر إلى وندهام - ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-308)

(٤٠) فوكس إلى فريزر ، ٢ فبراير ١٨٠٧ (W.O. 1-343)

(٤١) هالويل إلى دوكورث ، ٢٤ مارس ١٨٠٧ (Ad, 1-413)

(٤٢) عبد الرحمن الرافعى ، مرجع سابق، ص ٣٧ .

(٤٣) نلاحظ هنا الاهتمام بالرأى العام حينئذ ، كقوة لها أهميتها بالنسبة للصراع بين القوى .

(٤٤) ميست إلى وندهام ٢٦ يناير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٤٥) ميسيت إلى وندهام ٦ فبراير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٤٦) ميسيت إلى ١٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٤٧) ميسيت إلى وندهام ٦ فبراير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٤٨) كان بالإسكندرية حينئذ ميناءان : الشرقى وكان يسمى ميناء الإفرنج جاء هذا الوصف فى مكاتبة من محمد على إلى «خازنه» بخصوص مصب «ترعة الإسكندرية الذى ينبغى أن يكون فى البحر المالح من جنب ميناء الإفرنج» (انظر : عمر طوسون ، تاريخ خليج الإسكندرية .

ص٩٩.) ومنذ عهد المماليك كان لا يباح للسفن الأوروبية، التجارية والحربية، الدخول إلا فى هذا الميناء . أما الغربى ،فكان مفتوحا للسفن الإسلامية فقط. وقد سمح محمد على - فيما بعد-للسفن الأوروبية، التجارية منها والحربية ، بالرسو فى الميناء الغربى، كما وسعه وعمقه وأنشأ به الأرصفة الجديدة.

(٤٩) ميسيت إلى وندهام ، ٢٦ يناير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

نلاحظ هنا أن ميسيت يصف هذه الاستعدادات بأن حاكم الإسكندرية قد أجبر على القيام بها ، ربما إشارة إلى نوعية العلاقة بين الحاكم والباشا .

(٥٠) ميسيت إلى فوكس ، ٢١ فبراير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

وانظر أيضا :- ميسيت إلى وندهام ، ٢٦ يناير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٥١) ميسيت إلى فوكس ، ٢١ فبراير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٥٢) ميسيت إلى وندهام ، ٢٦ يناير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٥٣) ميسيت إلى فريزر ، ١٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٥٤) نفس المصدر السابق .

(٥٥) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٥٦) منطقة غربى الإسكندرية ما بين البحر وبحيرة مريوط .

(٥٧) هالويل إلى دوكورث ، ٢٤ مارس ١٨٠٧ (Ad. 1-413)

(٥٨) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٥٩) المصدر السابق .

(٦٠) كان يقع شمالى دمنهور على قناة الإسكندرية القديمة التى كانت تصل النيل بالقرب من الرحمانية بالإسكندرية

(٦١) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٦٢) المصدر السابق .

(٦٣) المصدر السابق

(٦٤) هالويل إلى دوكورث ، ٢٤ مارس ١٨٠٧ (Ad. 1 - 413)

(٦٥) ميسيت إلى وندهام ، ٢٣ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٦٦) انظر نص الوثيقة باللغة الإيطالية فى : (W.O. 1-348)

Douin, Op. Cit., pp. 23-24.

(٦٧) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار، جـ ٤ ، صفحات ٤٤- ٤٥ .

(٦٨) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٦٩) عبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ، ص ٣٩ .

ويذكر المؤلف ذلك بكل ثقة رغم أن كتاب Douin كان بين يدى المؤلف وبه وثائق هجوم يوم ١٨ مارس وخسائره ... (انظر نفس المرجع هامش صفحة ٤٠)

(٧٠) يكاد ما يذكره الجبرتى عن «مكاتبات وردت مع سعاة» يكون أمورا لا تبعد عن الواقع ، بعكس ما يذكره عن «الشائعات» فهذه غالبا ما تكون مغايرة للحقائق ..

(٧١) عبد الرحمن الجبرتى ، المصدر السابق ص ٤٤.

(٧٢) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٧٣) مدافع قصيرة واسعة القطر .

(٧٤) المصدر السابق .

(٧٥) ميسيت إلى فوكس ٢١ فبراير ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٧٦) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٧٧) فريزر إلى وندهام ٢٧ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٧٨) هذا وقت لم يكن فيه لكلمات «وطنية» أو «قومية» وجود أو معنى . محمد على - بعدئذ- هو أول من غرس مثل هذه المعانى - ولو من غير قصد - فى نفوس الشعب المصرى، وذلك بتكوينه لجيشه من المصريين ، وقيامه بالإصلاحات ، وإقامته لحكومة مستتبة مركزها القاهرة، وتعتمد فى مواقع منها على مصريين ...

(٧٩) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٨٠) ميسيت إلى وندهام ٢٣ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٨١) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

(٨٢) ميسيت إلى وندهام ٢٣ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1-348)

هنا أيضا يفسر ميسيت سلوك الأهالى كما لو كان يعتذر عن سلوكهم فى دفاعهم عن مدينتهم، فيقول أنهم طلبوا الاستسلام حينما تأكدوا أنه لا خوف عليهم من الأتراك (نفس المصدر).

(٨٣) نقلا عن مانجان فى كتابه تاريخ مصر فى حكم محمد على .

(٨٤) عبد الرحمن الرافعى ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(٨٥) نفس المرجع السابق.

(٨٦) فوكس إلى فريزر ، ٢٨ فبراير ١٨٠٧ (W.O. 1- 303)

(٨٧) ميسيت إلى فريزر ١٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1- 348)

(٨٨) ميسيت إلى وندهام ١٤ فبراير (W.O. 1- 348)

(٨٩) هالويل إلى دوكورث ٢٤ مارس ١٨٠٧ (Ad., 1- 314)

(٩٠) فريزر إلى وندهام ٢٥ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1- 348)

(٩١) ميسيت إلى وندهام ٢٣ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1- 348)

(٩٢) سبق أن هاجم أمر الحملة من قبل تنفيذها عسكريون كبار فى بريطانيا انظر ما كتبه .

Lieutenant, General Sir John Moore

فى مذكراته اليومية فى ٥ فبراير ١٨٠٧ .

Douin , OP. Cit., P. LXV.

(٩٣) ميسيت إلى فريزر ٢٣ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1- 348)

(٩٤) نلاحظ أن ذلك ما فعله الفرنسيون بثغور الجزائر لدى نزولهم إليها عام ١٨٣٠ ... وقد فطن محمد على إلى الخطر الحقيقى من وجود الإنجليز على سواحل مصر الشمالية ، فأسرع بتصفية مشاكله مع المماليك تاركا لهم الصعيد وانطلق إلى الوجه البحرى لمواجهة الخطر الأشد ...

(٩٥) فريزر إلى وندهام ٢٧ مارس ١٨٠٧ (W.O. 1- 348)

(٩٦) فريزر إلى وندهام ٦ أبريل ١٨٠٧ (W.O. 1- 348)

(٩٧) ذلك يعتبره المماليك هزيمة ساحقة لمحمد على وقواته ، وبالغوا فى تصوير الموقف وخسائر محمد على فى رسائلهم إلى الإنجليز ، ووضعوا فى الاحتمال أمر هروب محمد على، وفكروا فى أسره بالتنسيق مع الإنجليز !!. انظر رسالة (إبراهيم بك شيخ البلد) إلى فريزر ، ٢٢ محرم ١٢٢٢هـ (أبريل ١٨٠٧م) W.O. 1- 348

(٩٨) اتفاقيات عقدت بين فرنسا والروسيا ، وفرنسا وبروسيا وبها سوت فرنسا مشاكلها مع الدولتين، وصار بونابرت متفرغا للقضاء على إنجلترا .

انظر :- W. Langer, Op. Cit., P. 642.

(٩٩) Castlereagh إلى Fox ٤ يونية ١٨٠٧ (W.O. 1- 304)

(١٠٠) Sir Arthur Paget إلى فريزر ٣٠ أغسطس ١٨٠٧ (W.O. 1- 348).

(١٠١) انظر

Terms Proposed by General Fraser for the evacuation of Alexandria (5 Sept. 1807) & Terms agreed upon for the evacuation of Alexandria (14 Sept. 1807).

Douin, Op. Cit., pp. 163- 165 .

المصادر والمراجـــع

أولا :- اعتمدنا فى هذا البحث على الوثائق البريطانية المنشورة فى الكتاب الذى أصدرته الجمعية الجغرافية الملكية (١٩٢٤) بإشراف

G.Douin et Mme E.C. Fawtier-Johnes

ومجموعات الوثائق المستخدمة هى كالآتى :

War Office (W.O.)

1-303, 1-304, 1-348- & 6-56

Admiralty (Ad.):

1-413, 1-314

Foreign Office (F.O.):

1-303, 1-348

ثانيا :- مصادر ومراجع عربية

- عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - ج ٤.

- عبد الرحمن الرافعى بك ، عصر محمد على ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٤٧.

ثالثا :- أعمال بلغات أجنبية

- G. Douin et Mme E.C. Fawtier - Johnes, L'Angleterre

et L' Egypte, Le Camagne de 1807. Le Caire 1924.

- Thiers, M. A., Histoire du Consulat de L'Empire T. 7éme. Paris 1847.

رابعا :- قواميس

-H.W. Fowler & F.G. Fowler, The Concise Oxford

Dictionary, 4 th. Ed. 1958 .

- Langer, W.L., An Encyclopedia of World History. London 1960.

- درويش النخيلي ، السفن الإسلامية على حروف المعجم . الطبعة الثانية - دار المعارف ١٩٧٩ .